

صورة القوس في الشعر الجاهلي

سعيد عكاشة

أستاذ مكلق بالروس ج. ميكي بلعباس

لقد حاولت الدراسات التقليدية أن تبين سرّ العبقرية وعوامل الصعود في الموروث الجاهلي. فعزّزت ذلك إلى جودة اللغة والقدرة التصويرية والإيقاع المشخص للإنفعالات والمصور للوقائع وكذلك إلى عوامل أخرى كثيرة ولكن مع ذلك كله لم تصب أعماق المسألة. لقد ظلت الحقيقة في منأى عن قبضتها لأنها عزفت عن إحالة الظاهر إلى باطن يسكنه بعمق ولم يخطر ببالها شيء أساسي فحواه أن كل فن عظيم لابد له من أن يتجاوز فيه المراثي إلى اللامرثي لأنه من خلال شرارة اللامرثي يضاء الداخل ويعاش بصورة جديدة متعجزة. وهذا يعني البحث عن مضمرات النص واستبصار منطوياته التي لا ترى لدى النظر إليها من السطح فإذا كان هذا شأن القراءة المنتجة فإن الشعر الجاهلي لا يمكن النظر إليه من السطح فقط وكأنه يسقط كل شيء بسهولة بل سيظل يثابر على صيانة كيانه إزاء كل محاولة افتراغ وسيبقى في منعة حصينة لأنه لا يستسلم إلا أولاً بأول (١). ومن أجل إرغامه على التنازل عن بعض ما يملك من غنى كثير وغزير تسعى القراءة الحديثة إلى التخفيف من درجة هذه الحصانة. وبهذا وحده يصير النص الجاهلي وجوداً مجهولاً لا يفتح إلا ليفلق ولا يستكشف المعاني إلا لتصوير طلسمها على الرغم من النقش الدائم للمعنى وكأنه كثر سحري مخبوء في مغارات مظلمة.

وعلى هذا لا مفر من أن نسلم بتلك العبقرية الفذة للشاعر الجاهلي الذي لا يزال يقبل على حقائق الكون والوجود إقبالاً هئاناً وينفعل بتجارب الحياة انفعالاً هئاناً. ويؤدي هذه الحقائق والتجارب أداء هئاناً وليس تجارب الحياة الخام المسجلة تسجيلاً مقتصرًا على المحاكاة ولذلك نرى طرفة بن العبد يصف الناقة كما يريد أن تكون لا كما هي كائنه في الواقع المستقل عن الوعي إنها محاولة انفعالية تخزن إسقاطات الداخل أما حصان امرئ القيس فيتعذر وجوده كواقعة موضوعية إنه مشيئة الشاعر التي تعبر عن إحباط مرير إزاء قهر الواقع.

إن نظرة اختراقية لهذا العالم الشعري سوف تستحضر غيابه وتشبعنا مضمراته وتطلعنا على السر الكامن وراء هذا الحصن المنيع ورسوخه حتى يومنا هذا. إنه كككل فن قادر على إثارة النواة المدفونة تحت ركام حضاري كثيف سرعانما يعيد فيه الحياة فيتوهج ويعد جزء منا. بهذه الرؤية وهذا الإحساس لا غير يتسنى لنا اختراق المنغلقات وكشف المعميات في هذا الشعر الذي يختزن في قعره الكثير من العلاقات المتولدة أهمها اللأمن المولد لقلق حياتي عميق والمفرز لرغبة شديدة في الصراع من أجل التوصل إلى حل أزمة الحياة بأبعادها الثلاثة: الحضارة والأمن والعشق.

ولما كان هذا الصراع مريرا يعكس ضعف الإنسان الجاهلي أمام الطبيعة وشعوره بالأمن في حلبة التناحر القبلي فقد جسدت صور الصيد والحرب بصديق هذا الإحساس بالافتراس؛ عدوان شرس ودفاع مستميت ومن شأن هذا الحس المأسوي أن يخلق نوعا من القلق يسقطه الشاعر على الموجودات التي يقع عليها حسه "وحسية الشاعر هنا دليل على وفرة المعاني وثرائها لأنها حسية بسبيل الرمز لا التقرير والوصف"(2). وأمام هذا التقريب الذي تمارسه الحياة على الفرد الجاهلي بات من الضروري أن يبادر الإنسان إلى السلاح فهو رمز تنطوي تحته الكثير من المعاني فرفعه فوق الرأس من أسمى آيات الاحترام وتحطيمه يعني الضعة والذلة وتسليمه يعني الخضوع والمسكنة(3). به يصون وجوده ويحقق رغبته في البقاء إزاء تهديدات العالم الخارجي.

والظاهر أن السلاح إنما كان نتيجة تلك الشائبة القاسية التي كانت تؤلف العالم الجاهلي الرحيب طبيعة تتسم بالقحط وحروب لا حد لها. وبواسطة استعمال هذه الأسلحة ووصفها نفوساً تحس وأرواحاً تشعر. ومناجاتها بأعذب الألحان والتسمع لكل همسة تخلج فيها والتلمس لكل حركة تحاول التعبير عنها(4). إنما كان الجاهلي يتهج نحو تأكيد قوته. ونحو اكتفائه بذاته عبر تأكيد تلك القوة(5). فليس غريبا والصورة هذه أن يحتل القوس ضمن هذا التنوع عناية فائقة في حياة الإنسان الجاهلي يوسمه من الأسماء ما يسمى أبنائه. ويمنحه(6) من الصفات والأصوات ما يجعل القارئ يدرك أنه يعني أكثر من الظاهر. إنه وسيلة منفعية ولكنه أيضا طاقة دلالية تؤكد عند الشنفرى انتقال الشاعر من تأكيد الذات إلى الحنين إلى العشيبة:

وأني كفاني فقد من ليس جازياً بحسني ولا في قريه متعل
ثلاثة أصحاب فؤاد مشيع وأبيض أصليت وصفراء عيطل
هتوف من الملس المتون تزينها رصائع قد نيطت إليها ومحمل
إذا زل عنها السهم حنت كأنه مرزاة عجلي تزن وتعمل(7).

إن صورة القوس كما رسمها الشنفرى إنسان خافل بالمشاعر (هتوف حنت مرزاة تعول) وهي مشاعر توحى برغبة الشاعر في التخلص من انفعالاته الطاغية عليه من الداخل إنها فضلا عن كونها شعور بالأمن فهي محاولة لشباع حاجة الشاعر للانتماء إلى العشيرة التي يجد في كنفها الأمن المفقود. لأن خصوصية الفردية لا وجود لها خارج الانتماء القبلي لذلك نشعر بتلك الرغبة الجامحة من قبل الشاعر في كونه يمد يده خفية إلى الجماعة ليصافحها.

وفي سياق آخر وفي ظل مشهد الافتراض تأخذ صورة القوس والسهم وفعل الرامي بعنا رمزيا لترسم مأساة الإنسان الوجودية، وتجسدها في بنية فنية ذات أبعاد دلالية رمزية لا تترك إلا بما هي جزء من الكل الفني المتكامل- (8) فالصياد ليس هو الشاعر والحيوان ليس هنا هدفاً أخطأه الصياد فتجا، والسهم ليست وسيلة للرمي وحسب يقول امرؤ القيس: (9)

رب رام من بني ثعلب مثلج كفيه في قتره
عارض زوراء من نشم غير تباشاة على وتره
قد أتته الوحش واردة فتحى الترع في يسره
فرماها في فرائمها بإزاء الحوض أو عقره
برهيش من كنانته كتلضى الجتمر في شرره
فهو لا تنمي رميثه ماله لا عد من نقره(10)

إن عناصر الصورة في هذا المشهد اجتمعت لتشكّل حجم المأساة التي يحياها الإنسان في مواجهة الموت، فالإنسان تمثيل رمزي بالحيوان المعتدى عليه، ومن ثم قيام هذا الحيوان بالدفاع عن نفسه وبنجاته تعبير رمزي عن نجاة الفرد من قوى التدمير بعامه. وأما الرامي الذي يحمل قوسه وكنانته (الموت) والوحوش ترد الماء (الحياة) فيعنو المشهد وكأنه الحياة محاصرة بالموت، فقوس الصياد وسهامه جمر ملتهب قد تصيب مقتلها وقد تخطئ وكأنها

وسيلة من وسائل هذا الزمان الغادر والمباغت الذي لا يجسد إلا هذا الصراع الرجولي الجلد. صراع بين الإنسان الصبور وبين قوى الطبيعة البدائية التي تتقاذفه وتتلاعب به في كل ساعة من ساعات حياته. وصراع بين القبائل في ترحالها وبحثها عن الرزق الزهيد. ومن هنا جاء تعاطف الشاعر الكبير مع الحيوان الوحشي فهو يجد في هذه الوحوش زملاء في كفاح البقاء ضد القناء.

هكذا كان احساس الجاهلي بالحياة والموت زائد الحدة يبلغ درجة العنف والاندفاع الهستيري. حياة عنيفة يحيون بعنف كل لحظة من لحظاتها وينفعلون بكل ما يستطيعون من نشاطها وحركتها قبل أن يخدمهم سكون الموت الأبدى(11). أليس هذا هو سر الحقيقة الدنيوية المحضة للجاهليين الخالية من أية إيمان وعقيدة تخفف من مرارة فكرة الموت وتؤملهم في حياة أخرى تعقب الحياة الدنيا.

ومن هنا لا تعجب لماذا سعى الجاهليون إلى ربط منجزاتهم المادية بما يختلف في نفوس وتتأجج به مشاعرهم من انفعالات فلا الحيوان هو الحيوان الواقع ولا الرمح والسيف والقوس هي الوسائل المعهودة إنها شحنات كهربائية ورموز تحمل دلالات خصبة وقيم جديدة. فليس غريبا أن يحمل القوس كل هذا الاهتمام في الشعر العربي القديم. فهذا الشماخ بن ضرار يفاجئنا بقصة كاملة في ديوانه عن قوس صياد فقير مدقع نمشعر في النهاية أن القوس لم يكن سوى مطية لانفعال كامن ورؤية خفية(12). وإلا كيف نفسر اهتمامه بأدق التفاصيل وشحنه بأسمى الانفعالات وتقلبه في سائر الأمكنة والأزمنة. إنه قوس من غصن في شجر كثيف أحاط به حواجز شتى حتى إذا طال وتم نهض إليه يرتقي الجبل فانحنى عليه بفأسه الحادة الشرسة ثم عرضه للشمس حولين كاملين وبراء من الاعوجاج حتى يلين فصار الغصن قوسا:

تخيرها القواس من فرع ضالمة	لها شذب من دونها وحواجز
نمت في مكان كنتها فاستوت به	فما دونها من غيلها متلاحز
فما زال ينحو كل رطب ويابس	وينغل حتى نالها وهو بارز
فانحنى عليها ذات حد غرابها	عدو لأوساط العضاة مشارز
فلما اطمأنت في يديه رأى عنى	أحاط به وأزور عمن يحاوز

فمظطعها عامين ماء لحائتها وينظر منها: أيها هو غامز
أقام الثقافة والطريدة درأفا كما قومت ضغن الشموس المهامز. 13

هذه قضية الشماخ مع القوس قضية الإنسان حين يحلم بتحقيق ذاته. ويخوض في سبيلها صراعا مريرا داخليا وخارجيا من أجل المحافظة على المبادئ والقيم إن قوس الشماخ ماهي إلا وسيلة للارتقاء والسمو نحو الأزل. إنها رمز المبادئ التي إذا عرى منها الإنسان انحط إلى درك الحيوان. فالقواس في عنايته بقوسه وتصحيح ما يكون فيها من عيب هو امتلاك لمبادئ خصبة وحمايته لها. حتى إذا جاءت اللحظة الحرجة التي يختبر فيها معادن الرجال فيبين من الرخو. ذلك أن الذي يعشقون المبادئ أكثر أما الذين يضعون في سبيلها قلائل. إن قواس الشماخ يقع ووقوعه هذا يعني انهزامه فهو ينهزم أمام مواطن الفتنة والإغراء في هذه الحياة المتبرجة الساحرة.

فوا في بها أهل المواسم فانبجى	لها بيع يغلي لها السوام رائز
فقال له هل تشتريها؟ فإنها	تباع بما بيع التلاد الحرائز
فضل بناجي نفسه وأميرها	أيأتي الذي يعطي بها أم يجاوز
فقالوا له بايع أخاك ولا يكن	لك اليوم عن ربح من البيع لاهز
فلما شراها فاضت العين عبره	وفي الصدر حراز من الوجد حامز. 14

تعد قضية القيم في قصيدة الشماخ من القضايا الكبرى في حياة الإنسان التي تمنحه تماسكه وتحدد انتماء. وهل يكون الإنسان بلا قيم أكثر من كومة من اللحم والعظم هذه القيم التي يؤمن بها الإنسان فردا أو جماعة أو أمة هي التي تشكل لحمه وتهذب مشاعره وتبني دبره. فإذا تجرد منها انتقت عنه إنسانيته وتحول إلى حيوان أعجمي. هكذا كان حال القواس (الشماخ) إنسانا معتبرا بإنسانيته فخورا بمبادئه حتى إذا حلت به اللحظة الحاسمة تحولت نفسه إلى صراع عنيف بين القيم واغراءات الحياة (16). فالمسألة إذن ليست بيعا يعود عليه بالفائدة. لأنها لو كانت كذلك لكان من حق هذا القواس أن يكسب بعمله مالا يسند به ما ضاع دون حسرة وندم لكنها قصة علاقة حميمة بين المبدأ وصاحبه. فإذا انهارت لم يعوضها مال وذهب. ولم يرد لها بكاء وحسرة وندم.

الهوامش

- (1) يوسف اليوسفي، البحوث في العلفات ص 07.
- (2) محمد أحمد بريزي، الأسلوبية والتقاليد الشعرية ص 101.
- (3) نوري حمودي القيسي، الفروسية في الشعر الجاهلي ص 168.
- (4) نفس المرجع، ص 171.
- (5) يوسف اليوسفي، مقالات في الشعر الجاهلي، ص 216.
- (6) ابن رشيق، العمدة، 2/ ص 952.
- (7) الشنفرى، الديوان، ص 60.
- (8) ريتا عوض، بنية القصيدة الجاهلية، ص 313.
- (9) امرؤ القيس، الديوان، ص 266 - 267.
- (10) الزوراء، العوجاء، شمس شجر تصنع منه القسي رهيش السهم الظاهر.
- (11) محمد النحوي، الشعر الجاهلي، ص 426.
- (12) ينظر احسان عباس، دراسات عربية وإسلامية، ص 3.
- (13) الشعاع بن شرار، الديوان، ص 46.
- (14) نفس المصدر، ص 47 - 48.
- (15) وهب أحمد زوعبة، شعرنا القديم والنقد الجديد، ص 345.
- (16) ينظر عبده زبده، الصوت والصنى، مجلة الأدب الإسلامي، المجلد الرابع.

